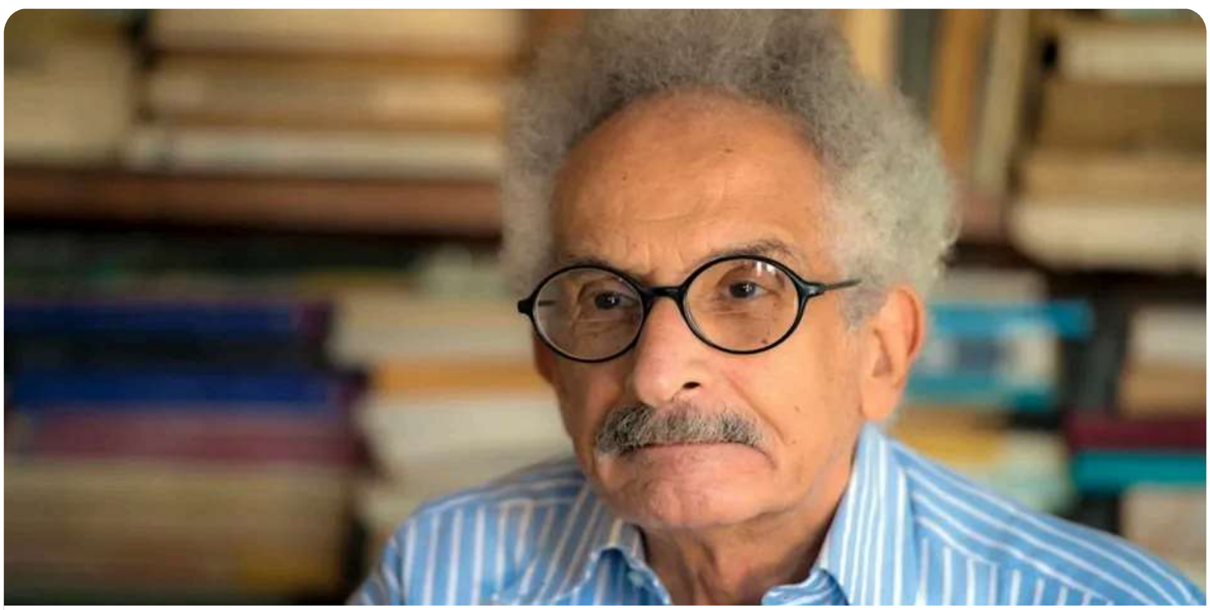
الرئيسية > ثقافة

# رحيل صنع الله إبراهيم... سجين الناصرية صاحب "تلك الرائحة"

المدن - ثقافة | الأربعاء 2025/08/13



كتب "بيروت بيروت"، و"ذات"، و"شرف"

مشاركة عبر

حجم الخط

**رحل عن عالمنا الأديب المصري صنع اللّٰه إبراهيم، عن عمر ناهز 88 عامًا، على إثر إصابته بالتهاب رئوي نقل على أثره إلى أحد مستشفيات القاهرة. وكتب الروائي إبراهيم عبد المجيد على صفحته الشخصية في موقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك: "يا إلهي . رحل صنع اللّٰه ابراهيم. كل كلام الدنيا لا يكفي تعبيرًا عن حزني يا معلمنا وصديق العمر الجميل. إلى جنة الخلد يا صنع اللّٰه يا حبيبي. الدموع تجعلني لا أرى يا حبيبي".**

وكتب الشاعر والإعلامي المغربي ياسين عدنان: " خسارة فادحة. رحم اللّٰه صاحب "اللجنة"، "نجمة أغسطس"، "بيروت بيروت"، "شرف"، "ذات"، و"أمريكانلي".. يوم استضفتُه في #بيت_ياسين تحفّظَ على نحوٍ قبلي على مشهد الغداء والسفرة. فقررنا أن نسجّل الحلقة من دون مشهد السُّفرة الشهير. وما أن أنهينا التصوير، وكان سعيداً به، حتى سألني بتلقائية: "ما الحكمة من هذا المشهد الذين كنتم مُصرّين عليه؟" فأجبته: "هو نوع من التّبسُّط مع المشاهدين ليتأكدوا من أن الأدباء كائنات مثلهم تأكل الطعام وتمشي في الأسواق. ولأنه لا أسواق لدينا في هذا البيت/ الاستوديو، فكل ما نستطيعه هو هذه السفرة لإنزال الأدباء من" البُرج" المُتوَهّم. فقبل فورًا تسجيل مشهد السفرة، بل وتحمّس له. لكن المشكلة هي أننا كنا قد أنهينا التصوير. ولم نكن قد رتّبنا أنفسنا لذلك؛ أي لا طعام لدينا أصلًا. لهذا أذكر أننا أعدنا تهييء البلاطو للتصوير، وقررنا إحضار أيِّ شيء صالح للأكل من أقرب مطعم للاستوديو لتأمين هذا المشهد الذي كشف بالنهاية جزءاً أساسيًّا من شخصية صنع اللّٰه وفلسفته في العيش والحياة". وكتب عزت القمحاوي "سيبقى صنع اللّٰه إبراهيم، القامة الروائية المديدة والضمير والاستقامة الثقافية، ستبقى كتابته شاهدة على تاريخ سياسي وأدبي رحمك اللّٰه ووداعاً".

والقصص وحثّه على الاطِّلاع، فبدأت شخصيتُه الأدبية في التكوين منذ الصِّغَر. درس صنع اللّٰه إبراهيم الحقوق، لكنه سرعان ما انصرف عنها إلى الصحافة والسياسة. انتمى للمُنظَّمة الشيوعية المصرية "حدتو"، فاعتُقِل في العام 1959، وربما كان من أصعب ما مر عليه ما حدث في بدايات اعتقاله، حين كان أحد شاهدين على مقتل أحد أيقونات النضال الوطني في تاريخ اليسار المصري، وهو شهدي عطية في محبسه، وطُلب منهما أن يشهدا زورًا أمام النيابة. وجد شريكه حلاً فرديًا لعدم الخضوع، في حين يقول صنع اللّٰه: "لا أذكر أني مررت في حياتي كلها بلحظة شعرت فيها بالوحدة التامة كما كان شأني آنذاك. وشل الرعب تفكيري وإرادتي وصرت مثل الروبوت المستعد لتنفيذ كل ما يطلب منه". ويضيف: "أرتني هذه التجربة بشاعة القهر وما يؤدي إليه من إهدار للكرامة الإنسانية. وعلَّمَتني النظر إلى الإنسان ككلٍّ متكامل مؤلَّف من نقاط قوة ونقاط ضعف. واحتل هذا الموضوع مكان الصدارة من تفكيري بعد ذلك فيما تلا ذلك من أحداث".

بقي صنع اللّٰه في السجن خمسَ سنوات حتى 1964؛ ففي ذلك العام وقف الرئيس عبد الناصر مع عدد من رؤساء الدول لحضور اللحظة التاريخية التي سيُغيَّر فيها مجرى نهر النيل لبدء عمل السد العالي بعد بنائه، وكان من بين الحضور الرئيس السوفياتي نيكيتا خروتشوف، الذي صاحب مجيئه لحضور الحدث الإفراج عن مجموعة كبيرة من السجناء السياسيين والمثقفين واليساريين، وذلك بعد تحفظه على زيارة بلد تسجن حكومته الشيوعيين، وكان صنع اللّٰه إبراهيم بين المفرج عنهم.

خرج صنع اللّٰه إبراهيم من المعتقل، وشرع في كتابة روايته الأولى، ولم يكن سهلاً عليه تجاوُز تجربة الاعتقال، لكنه نجح في هذا العمل الذي يجمع بجانب روايته القصيرة «تلك الرائحة» قصصًا قصيرةً أخرى كتبَها في فتراتٍ مُتفرقة بعد خروجه من المعتقل، واستطاع أن يُعبِّر فيها عن ضبابية المرحلة، وحالة التشتُّت والتمزُّق التي يعيشها إنسانٌ مأزوم، كانت كل جريمته أنه أفصَح عن رأيه في بلدٍ ظن أنه يمكن أن ينعَم فيه بالحرية، ولكنَّ الثمن كان قاسيًا. ولم يكن سهلاً التعافي من هذا الألم؛ فكانت الكتابة عن هذه الفترة هي شهادتُه

بضعة تعديلات، سيكون علامة جديدة في تاريخ الأدب المصري. يقول إدريس في مقدمة الرواية: "أعترف بأني شديد الضعف تجاه المواهب، وليس أسهل من الكتابة وسيلة تخدعُكَ عن الموهبة، والكتابة موهبةُ كل إنسان، مثلها مثل الكلام، ولكنْ قليلون أولئك الذين باستطاعتهم أن يخلُقوا من الكلام فنًّا، وتمييزُ الذهب من القشرة في حاجة إلى صائغ، والمواهب كالمعادن في حاجة إلى ميتاليرجيست ليُفنِّد ويُقيِّم، ولستُ هذا الصائغ أو أخصَّائي المعادن، ولكني أُحِسُّ بالموهبة مثل إحساسي بالخطر أو الأمل أو الضيق. ولقد عرفتُ صاحب هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات، دقيق الجسم، دقيق ملامح الوجه، أحيانًا أُحسُّ به كالطائر الذي يضع منظارًا. ومنذ عرفتُ صنع الله وهو أصيل، لم أشهَده مرةً متلبسًا بخاطرٍ ليس من صنعه أو بفكرةٍ لم يَشقَ في تحصيلها، وأسماء كثيرة أطلقتُها عليه، أوَّل ما عرفتُه سمَّيتُه داستايوفسكي أو كما تعوَّدنا تَسميتَه دوستيوفسكي؛ فقد كان يكتب بطريقةٍ منسابة فياضة تُحسُّ أن وراءها نبعًا لا ينضب، وكانت الشخصية المحبَّبة إليه أيامها هي خليل بك، وهو نموذجٌ بشري التقطَتْه موهبة صنع الله كما يلتقط طائر النورس من طيرانه العالي ظَهر السمكة وينقَضُّ عليها. وخلَق صنع الله من خليل بك شخصيةً يمكن أن يُكتَب عنها عشراتُ الكتب من دون أن يفرغ محتواها".

ويحكي الناقد محمد بدوي أن عنوانها الأول كان "تلك الرائحة النتنة"، بينما نصحه يوسف إدريس بأن يكتفي بـ"تلك الرائحة"، ونشرت الرواية العام 1966؛ أي قبل عام من هزيمة حزيران/ يونيو 1967، لتصور روائح ما هو سيء في المحيط العام وتسجلها بعين البطل الخارج لتوه من المعتقل السياسي. وبينما احتفى يوسف إدريس بالرواية، وكتب مقدمة طبعتها الأولى، تأفف منها يحيى حقي بشدة، وكتب مقالاً شهيرًا صب فيه سخطًا حادًا على العمل وكاتبه، متحفظًا شديد التحفظ على التصوير الحاد واللغة الجارحة التي اعتبرها فجة، خصوصًا في تعامل البطل مع حياته الجنسية.

في حوار سابق مع مجلة "أفكار" الأردنية، كشف صنع الله إبراهيم أنّ روايته "اللجنة" وُلدت من تجربة شخصية أثناء تقدّمه لاختبار القبول في معهد

بتأثره بكافكا، وبوجه خاص برواية "المحاكمة"، معتبراً أن التشابه بين العملين يعود إلى تقاطع الأفكار لا أكثر.

بعد خروجه من السجن اشتغل في الصحافة لدى وكالة الأنباء المصرية في العام 1967، ثم عمل لدى وكالة الأنباء الألمانية في برلين الشرقية في العام 1968، حتى العام 1971، وبعدها اتَّجه إلى موسكو لدراسة التصوير السينمائي، والعمل على صناعة الأفلام. ثم عاد إلى القاهرة في العام 1974 في عهد الرئيس أنور السادات، وتَفرَّغ للكتابة عام 1975.

في روايته "بيروت بيروت" يسافر صنع الله إبراهيم إلى العاصمة اللبنانية للبحث عن ناشرٍ لكتابه، فيُفاجأ بنسفِ مقر الدار أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، وسفَرِ مالكها إلى الخارج، ثم يَتعرَّف على ممثِّلة ومُخرِجة ويبدأ في كتابةِ نصوصِ فيلمٍ وثائقي عن الحرب؛ يَرسم عبره صورةً حية لبيروت؛ المدينةِ العربية التي حملَت الحب والحرب في رَحِمها، فجمعَت بين الحياة والموت. تتجلى عبقرية صنع الله إبراهيم في اختياره الفريد لزمن الرواية؛ إذ يتَّخذ من هذه الحرب سياقًا زمنيًّا لها، ليُسلِّط الضوءَ على تأثيرها على المجتمع اللبناني، ويُركِّز فيها على تفاصيل الحياة اليومية والمعاناة التي يُعايِشها الشعب اللبناني. كما جاءت فكرةُ التعليق الصوتي على فيلمٍ يَتناول الحربَ الأهلية طريقةً مبتكرة في السرد الروائي، استطاع بواسطتها تصويرَ الكثير من الحقائق التاريخية وتوثيقَها، فجاءت الرواية عملاً بحثيًّا رصينًا، وروائيًّا بديعًا.

في روايته "ذات" يَسرد سيرةَ وطن، وسيرةَ ثورة، وسيرةَ جيلٍ كامل خرجت منه "ذات" التي تمثِّل النموذجَ السائد للمرأة المصرية؛ فيَتحدَّث عن فترة صِباها وزواجها من عبد المجيد، وعملها وإنجابها وأمومتها، متَّخذًا من سيرة حياتها مِرآةً كاشفة لرصدِ تفاصيل الحياة اليومية التي يَمُوج بها المجتمع المصري خلال عصرَي السادات ومبارك، كما يُسلِّط الضوءَ على التحوُّلاتِ السياسية والاقتصادية خلال هذه الفترة، وطريقةِ استقبال "ذات" و"عبد المجيد" لها، وأثرها على تشكيل حياتهما. كما لا تخلو الروايةُ من التوثيق التاريخي والأرشيف الصحفي الذي حرص عليه صنع الله إبراهيم في الكثير من رواياته، والذي يُمكِن

وفي روايته "نجمة أغسطس" يذهب صنع اللّه في رحلة بديعة إلى أسوان أثناء بناء السد العالي، وتُطلِعنا على التفاصيل الدقيقة التي تجعلنا نعيش الحدث وكأنه جزء منَّا، مع الإشارة إلى الكثير من المعاني الإنسانية، والمواقف اليومية التي لا ترويها كتبُ التاريخ؛ وإنما توثِّقها أقلامُ الأدباء الذين يملكون عيونًا ترى الهامش أكثر ممَّا ترى المتن، فتُعطيه حقَّه، وتتحدَّث بلسانه، وتروي حكايته؛ فتحدَّثت الرواية عن أحوال البلاد، والمعتقَلات، والعمَّال الفاعلين الحقيقيين في بناء السد، وقُرى النوبة التي غرقت نتيجةً له، والطريقة العبقرية التي نُقل بها معبد أبو سمبل، فجاءت الرواية صورةً حية ونابضة لبناء السد العالي؛ الحدثِ الأهم في تاريخ مصر الحديث.

وفي روايته "1970" جمَع بين السرد الروائي والأرشيف التاريخي للكثير من الأخبار التي تَناولَتها الصحفُ في العام 1970م، وهو العام الذي تُوفِّي فيه جمال عبد الناصر، فخرجَت الرواية بسرديَّةٍ مُبتكَرة وجديدة ومُوثَّقة في آنٍ واحد. فراح يَسرد الكثيرَ من الأحداث على مدار أيامِ عامِ 1970؛ منها ما هو سياسيٌّ يَتعلَّق بالصراع العربي الإسرائيلي، ومنها ما هو غير ذلك من صنوف الأخبار المختلفة، سواء كانت إعلاناتٍ عن مُنتَجات، أو دعايةً فنية، أو أخبارًا اجتماعية تَتعلَّق بهجرة مصريين إلى الخارج، وغير ذلك من الأخبار التي حوَتها صحفُ عامِ 1970م.

وبالتوازي كان الراوي يخاطب جمال عبد الناصر، ويضع التجرِبة الناصرية في الميزان عبر حوارٍ يمتدُّ طَوال الرواية وينتهي في التاسع والعشرين من سبتمبر؛ يومِ وفاة جمال عبد الناصر، ومشهد يوم الرحيل.

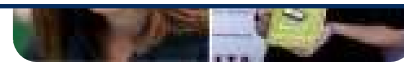
في روايته "أمريكانلي: أمري كان لي" يسافر بنا صنع اللّه إبراهيم هذه المرةَ إلى أميركا، عبر شخصية الدكتور شكري الذي سافر إلى سان فرنسيسكو لتدريس مادة التاريخ المقارن بمعهدٍ يمتلكه ثَرِي عربي، وكان الفصل الذي يلقي فيه محاضراته يضمُّ ثمانية طلاب أميركيين ذوي أعراقٍ مختلفة وخلفياتٍ ثقافية وعقَدية متباينة؛ فمنهم الأبيض والأسود والأصفر، واليهودي والمسيحي والمسلم. وعبر حياة الدكتور شكري في أميركا، وعمله بالتدريس، قدَّم صنع اللّه صورةً حية ونابضة للمجتمع الأميركي بكل تفاصيله وتناقُضاته، كما استطاع

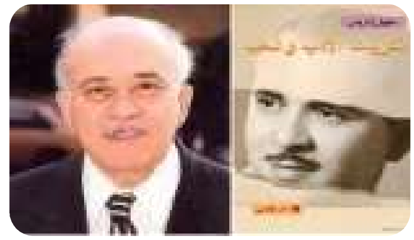
التاريخية والأيديولوجيات المختلفة، مؤكّدًا على ثقافة الاختلاف والحوار.
تَميَّز إنتاج صنع الله إبراهيم الأدبي بالتوثيق التاريخي، والتركيزِ على الأوضاع السياسية في مصر والعالَم العربي، فضلاً عن سرده الكثيرَ من حياته الشخصية. ومن أشهر أعماله عدا التي ذكرناها: رواية "شرف" التي تحتلُّ المرتبةَ الثالثة ضمن أفضل مئة رواية عربية، و"اللجنة"، و"الجليد"، و"النيل مآسي"، و"وردة"، و"العمامة والقبعة"، وغيرها من الأعمال الأدبية التي تحظى بمكانة متميزة في عالم الأدب.
أثير حوله الكثير من الجدل بسبب رفضه استلام "جائزة الرواية العربية" التي يمنحها المجلس الأعلى للثقافة، ففي تشرين الأول (أكتوبر) 2003، رفض صنع الله الجائزة مهاجماً نظام حسني مبارك، ومعتبراً أن مصر "دولة تمارس التعذيب، وتقمع حرية التعبير، وتفرض الحصار على الثقافة الحقيقية". وأضاف "في هذه اللحظة التي نجتمع فيها هنا، تجتاح القوات الإسرائيلية ما تبقّى من الأراضي الفلسطينية، وتقتل النساء الحوامل والأطفال، وتشرّد الآلاف، وتنفّذ، بدقّة منهجية واضحة، خطة لإبادة الشعب الفلسطيني. لكن العواصم العربية تستقبل زعماء إسرائيل بالأحضان".

في العام 2003، نال العديد من الجوائز العربية المهمة، مثل "جائزة ابن رشد للفكر الحر" عام 2004، و"جائزة كفافيس للأدب" في العام 2017.

في أيار (مايو) الماضي، أصيب بكسر في الحوض، وهو ما أدى إلى تدهور حالته الصحية. وعلى الرغم من تلقيه العلاج في مستشفى «معهد ناصر»، ناشد مثقفون مصريون الحكومة التدخلَ لنقله إلى مستشفى متخصّص وتحمّل تكاليف علاجه، إلا أن المرض كان قد أنهك جسده.

**الأكثر قراءة**





سهيل إدريس: تمرّ ذكرى مئوية ولادته في بيروت بصمت وخجل



في مسيرة ساطع هاشم: أيام بطرسبورغ والصقيع



"المدن" تنشر فصلًا من"قصر موال" للفرانكو-لبنانية دومينيك إده



تابعنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي

جريدة "المدن" الإلكترونية جريدة إلكترونية مستقلة مقرها بيروت تمثل التيار المدني اللبناني والعربي

روابط سريعة +

معلومات +

النشرة البريدية

خطوة بسيطة وتكون من المطلعين على الخبر في لحظة ظهوره

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك